

أبو سعيد أبو الخير

وشطحات المتصوفة

للدكتور جواد علي

—>>><<<—

عَلَّقَ معالي الأستاذ مصطفى باشا عبدالرازق في كتابه القيم «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية» على اسم أبي سعيد أبي الخير، وفي أثناء عرضه لرأى المستشرق «تيمان» *guillaume Theophil* " Tenremann بهذا التعليق : « لم أجد ذكرًا في أي يدي من مراجع البحث لأبي سعيد أبي الخير، لكن يوجد أبو سعيد حمد بن عيسى الخراز نسبة إلى خرز الجلود من القرب ونحوها من أهل بغداد، وقد ذكره صاحب كتاب «التعرف لذهب أهل التصوف» وقال السيد مصطفى العروسي في حاشيته على شرح رسالة القشيرية «هو شيخ الطائفة غير أنه توفي على الأرجح سنة ٢٨٠هـ (٨٩٩م) وذلك يمنع أن يكون هو المراد بواضع علم التصوف بل القرن الثاني أو في ثيابه»^(١).

ثم استمر معاليه قائلا : «على أن الأستاذ ماسينيون ذكر في كتابه «مجموعة نصوص لم تنشر متعلقة بتاريخ التصوف في بلاد الإسلام» ص ٨٧ أبا سعيد بن أبي الخير المتوفى سنة ٤٤٠هـ (١٠٤٨م) وذكر أنه خراساني وأشار إلى أنه كان يتحلل من القيود الدينية وكان ذا صلة بالفيلسوف ابن سينا، وليس أبو سعيد ابن أبي الخير هذا هو المقصود بالضرورة»^(٢).

ثم ذكر معاليه بعد هذه الفقرة نصوصاً فيمن يصح أن ينسب إليهم التصوف وفيهم اسم أبي سعيد الخراز البغدادي. وحين تحدث المستشرق عن أبي سعيد تحدث عن تطور التصوف في الإسلام وعن الأفكار الحديثة التي حلت بناديه كفكرة وحدة الوجود ثم

(١) راجع كتاب تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية لمصطفى باشا عبدالرازق ص ٦ عن أحمد بن عيسى الخراز. راجع الرسالة القشيرية ص ٢٤ والخراز من أهل بغداد صاحب ذا النون المصري والنجاشي وأبا سعيد اليسري والسمرقاني. مات سنة سبع وسبعين ومائتين وأربعين ومائتين. راجع الطبقات الكبرى، للشعراني ص ٧٨ وما بعد.

(٢) تمهيد ص ٦

ذكر تأثير بعض المتصوفة في التصوف كأبي سعيد أبي الخير في فارس والهند.

وتأثير أبي سعيد في متصوفة فارس تأثير مشهور معروف ولا سيما عند المستشرقين، وسبب ذلك على ما أرى هو أن هذا التصوف كان في إيران، وكان يكتب في عصر أخذ الفرس فيه يدونون أفكارهم بلغتهم الوطنية، وفي عصر ظهرت فيه حكومات إيرانية أخذت تتجمع اللغة الفارسية، فسار صاحبنا يكتب بهذه اللغة بأسلوب سنس جذاب وينظم بها نظماً جديداً على طراز مستكر فريد^(١)، وفصلاً عن ذلك فإنه لم يغادر وطنه على ما هو معروف عنه. ومع ذلك فإن الكتب العربية تحدثت عنه كتصوف عظيم ونقته «بشيخ الوقت ومقدم شيوخ الصوفية وأهل المعرفة في وقته»^(٢).

وأما قول معاليه حكاية عن رأي تيمان : «ثم جاء التصوف فعرض لهذا العلم المؤلف من اصطلاحات خفية وانضم إليه خصوصاً عند فرقة القائلين بوحدة الوجود من أهل التصوف الذي وضعه قبل القرن الثاني أو في ثيابه أبو سعيد أبو الخير، ولا تزال تلك الفرقة منتشرة في فارس والهند»^(٣) ففيه التباس على ما اعتقد نتج إما عن خطأ في الأصل وقع فيه المستشرق - وهو حكم لا أستطيع أن أحزم به لعدم وجود كتاب المستشرق لدى في الوقت الحاضر - وإما عن صعوبة في العبارة ووه في الترجمة أو الإحتصار إذ لا يوجد شخص آخر في تاريخ التصوف بهذا الاسم وبهذه الصفات ظهر أثره في فارس وأهمهم بالتحلل من قيود الدين وبالقول بوحدة الوجود غير هذا الشخص الذي تحدثت عنه الآن والذي عاش في النصف الأول من القرن الخامس للهجرة، لا قبل القرن الثاني أو في ثيابه كما جاء في الكتاب.

(١) راجع عنه R.A. Nicholson The Mystics of Islam,

Browne Persian Literatur. evol 1. p, 416. London 19٠h كذلك.

Zhukovski رسالة حورائيه ص ٤٩٣

(٢) راجع طبقات الخافيه الكبرى لشيخ الدين أبي نصر عبد الوهاب ابن تقي الدين البكي (الطبعة الحسينية) ج ٤ ص ١٠ كذلك الأنساب للسمازي (طبعة جب ص ٥٥٠). أيضاً تذكرة الاولياء لفريد الدين عطار ج ٢ ص ٣٢٢ وتذكرة النغراء تأليف أمير دولتشاه بن علاء الدولة (طبعة Broune) ص ٨٤ و ٥٢١.

(٣) تمهيد ص ٥ وما بعد.

عليه اسم الله العظيم . فلما رأى ذلك والده استعص كثيراً ووجهه على عمله الذي سبب تسويد الجدران وتشويه منظرها . فما كان من الطفل إلا أن أجاب : « نقشت يا والدي على الجدار اسم سلطانك ، ونقشت أنا اسم سلطاني »

فجعل الوالد من هذا الجواب وأمر بإزالة معالم ما رسمه هو على الجدار (١) .

درس أبو سعيد ، على طريقة ذلك الوقت ، النحو والفقه والتفسير والحديث والشعر وعلم الطريقة ، وحفظ من شعر العرب وحده ثلاثين ألف بيت (٢) ناهيك بشعر العجم . ولما توسم أبوه فيه الخير أخذه إلى أكبر شيخ في بلده وهو الشيخ أبو القاسم الكركاني من كبار المتصوفة وأصحاب الطرق ليتبرك به ولينال على يديه العلم والفوز والسعادة (٣) .

كانت الأحوال السياسية والاجتماعية في هذا العصر سيئة جداً : أمراء يتذبحون على جيف الدنيا ، وسلاطين يتقاتلون على ملك زائل لن يدوم ، ومشايخ يتحاسدون على نعمة لا تساوي شيئاً ، والمحطاط في الخلق إلى أقصى حد ، ونقص في النبل الإسلامية العليا ، وشذوذ في الطبع غريب ، وتكالب على المادة . فرأى الناس أن المخرج الوحيد للخروج من هذا المأزق هو محاربة المادة عن طريق التصوف ، ومحاربة الدنيا عن طريق الزهد . فنفتت سوق التصوفة وراجت بضاعتها . ويجب ألا ننسى بأننا في بلد فيه استعداد لهذا المبدأ قديم ، والهند وهي عش من أعشاش التصوف تجاوره وقد أمدته وغذته بهذه المادة منذ العصور التي سبقت الإسلام .

وكانت المادة أن ينتقل طالب العلم في ذلك الوقت من مكان إلى مكان طلباً للعلم وبحسباً عن شيخ شهير . وفي ذات يوم وبينما كان الغلام ينادر المدرسة إلى البيت إذا بأحد الفضوليين من المارة يسأله عما درس وعن الكتاب الذي درس فيه ، وأخيراً عن « ماهية الحقيقة » ولما لم يكن أبو سعيد يعرف شيئاً عن ماهية الحقيقة تشوش واضطرب ، فأجيب : « حقيقة العلم ما كشف عن السرائر » (٤) فأثار هذا الجواب في نفسه شوقاً عظيماً إلى معرفة الحقيقة

والمستشرقون من ذوي التخصص في موضوع التصوف حين يتحدثون عن مشاهير المتصوفة يتحدثون عن أبي سعيد كمثل بارز من أمثلة المتحررين والقائلين بوحدة الوجود . وكتب التصوف الفارسية تعتبره أمة بنفسه في عالم التصوف ، صاحب مدرسة ورأى . ومن البديهي أن يكون الشخص الذي بحث عنه نمان هو هذا الشخص الذي ذكره سائر المستشرقين وكتاب العرب والفرس (١) وأبو سعيد بن أبي الخير الذي تحدث عنه هذا المستشرق ، والذي تحدث عنه الآن ، هو شخصية مشهورة جداً ؛ وقد بحث عنه المستشرق المعروف إتي (Etié) في رسالته التي وضعا في عام ١٨٧٨ للميلاد ، والمستشرق الروسي زوكوفسكي (Zhukowski) ناشر كتاب « أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد » (٢) ثم المستشرق الثقة في موضوع التصوف الإسلامي الإنكليزي « نيكلسون » (٣) ، والمستشرق (إدوارد راون) في كتابه القيم « تاريخ الأدب الفارسي » (٤) . وهو أبو سعيد فضل الله بن أبي الخير ولد في غرة المحرم من عام ٣٥٧ للهجرة (٧ ديسمبر ٩٦٧ م) في ميهنة وهي مدينة من إقليم خاران بخراسان (٥) وتوفي في ٤ شعبان من عام ٤٤٠ للهجرة (١٢ يناير من عام ١٠٤٩ للميلاد) (٦) ، وكان أبوه عطاراً ، ولكنه كان فناناً موهوباً محبوباً من السلطان محمود الغزنوي ملك غزنة .

يقول فريد الدين عطار : رسم أبو الخير والده أبي سعيد على جدران بيته صورة بديعة للسلطان محمود الغزنوي وهو في وسط معركة حامية الوطيس تحف به فيلته وجنوده على طريقة الهنود في العارك ، فلما أبصر ابنه أبو سعيد هذه الصورة وهو طفل يافع نقش على جدران البيت أسماء الله الحسنى فلم يترك مكاناً إلا كتب

(١) راجع طبقات البيهقي ج ٤ ص ١٠ ، الأنساب للسماعي (طبعة جب) ص ٥٥٠ . كتاب لب الألباب ص ٢١٠ طبعة Petrus vettr (أستر دام) . رسالة حورايه طبعة Zhukovski ص ٤٩٣ . تذكرة الشعراء (طبعة براون) . وتذكرة الأولياء .

(٢) طبخ في بطرسبرك سنة ١٨٩٩ .

(٣) راجع كتابه الشهير Nicholson. The Mystics of Islam London, 1914 Nicholson, Studies in Islamic Mysticism Cambridge 1921 1-76

(٤) Broun persian Literature p. 2

(٥) راجع لب الألباب ص ٢١٠ .

(٦) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية) مجلد ١ ص ٣٥٢ .

والأنساب ص ٥٥٠ . وطبقات البيهقي ج ٤ ص ١٠ .

(١) راجع تذكرة الأولياء ج ٤ ص ٣٢٣ .

(٢) تذكرة الأولياء ج ٤ ص ٣٢٢ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) راجع تذكرة الأولياء ص ٣٣٤ .

«الرق» فهالك أصحابها عليها واشتراها أحدهم بشرين ديناراً^(١). وأبو سميد كسائر كبار المتصوفة من أصحاب الحس الرفيع والخيال، فنان موهوب بطبعه، خلو الحديث، سلس العبارة. كان على رأي أكثر المتصوفة الفرس في مذهب الحلول ووحدة الوجود بل كان من متطرفي أصحاب هذا المذهب في هذه العقيدة. وقد سما خياله في هذا الباب حتى على خيال بازيد البسطامي (المتوفى عام ٣٦١ للهجرة) والحلاج. وقد تحلل في كثير من أقراله عن القيود المألوفة، لم يحد في ذلك حرج ولا غصاصة. والأنبياء وعددهم (١٢٤) ألف نبى كلهم في الدرجة سواء جاءوا لتحقيق شيء واحد هو «معرفة الله» ولكن متى تمت هذه المعرفة عرف الإنسان كل شيء وسقط عنه كل شيء وتساوى لديه كل شيء^(٢). والشريعة هي ظاهر المعرفة، لذلك فهي لا توصل إلى المعرفة لأنها ظاهر الحق جاءت لمن لا يعرف الحق ولم يؤت العلم الصحيح. والسبيل الوحيد الذى يسلك بنا إلى المعرفة هو مسلك (الطريقة). وذلك لا يتم طبعاً إلا بعد جهد جهيد يصل الإنسان في نهايته إلى إدراك (الحقيقة) ثم إلى (النهاية) التى هي فوق (الحقيقة) وهى (المعرفة) التى لا يمكن إدراكها إلا بعد إدراك (علم اليقين)^(٣).

ومتى خصص الإنسان كل قواه وحصر كل حواسه في الوجود الحقيقي بحيث اتصل به اتصالاً كلياً أدرك عندئذ (عين اليقين). ومتى وصل الإنسان إلى هذه الدرجة من المعرفة اتصل اتصالاً مباشراً (بالمعرفة) التى تشع بنورها على القلوب وتتجلى عندئذ أسرار النبوات وحقائق الكتب المنزلة فلا حاجة إلى نبوة أو وسيط «لأنه يأخذ من حيث يأخذ الملك الذى يأتى الرسل»^(٤) وحيث أن القليل من الناس من يصل إلى هذه المرتبة احتاج الناس إلى الأنبياء والوسطاء ليكونوا سفراء بين الحق والناس^(٥).

المركنور جواد على

البقية في العدد القادم

ولم يزل يبحث عنها حتى وجدها في أروقة الزهاد والمتصوفين. اتصل وهو عمرو بالنقيه الشافى أبى عبد الله المصرى، ثم تحول إلى أبى القفال، والظاهر أن دراسة الفقه لم تجد في نفسه هوى ومكانة فانتقل إلى «سرخس» وهناك اتصل بصوفى مجذوب هو لقمان السرخسى، وقد أرشده هذا الصوفى إلى صوفى آخر هو «أبو الفضل حسن» تلميذ أبى نصر السراج على طريقة الجنيد البغدادي المتوفى عام ٢٩٧ للهجرة وعام ٩٠٩ للميلاد^(١).

أتقن أبو سميد مبادئ التصوف واجتاز الامتحانات النفسية الشاقة ونال «الحرقه» من أبى عبد الرحمن السلمى النسابورى (المتوفى عام ٤١٢ للهجرة) وأصبح درويشاً من الدراويش من أهل المسلك والنوق وقطباً من أقطاب التصوف في منطقة خراسان^(٢). والتصوف في نظر أبى سميد أبى الخير هو «طرح النفس في المبودية وتعلق القلب بالربوبية والنظر إلى الله بالكلية»^(٣)

وبعد سياحة في البرارى والقفار على طريقة الفقراء دامت سبع سنوات لم يبال خلالها بحر أو يبرد عاد أبو سميد إلى مخالطة الناس ومجالستهم، ونال حرقه ثانية من أبى العباس القصاب بمدينة «آمل» إلى أن حل أخيراً بنيسابور^(٤).

بلغ أبو سميد منزلة عالية جداً في التصوف، والتف حوله جم غفير من المريدين رأوا في سيرته سيرة الرجل الزاهد الصالح الذى وصل إلى مرتبة الوجد والفناء^(٥). فكانوا يتبركون به ويتباهون عليه. والسعيد منهم من حصل على قطرة ماء من ماء وضوئه ليتبرك بها. حكى أنه سقطت منه قطعة من قشر البطيخ

(١) عطار ج ٢ ص ٣٢٤.

(٢) عطار ج ٢ ص ٣٢٦ وهو صوفى شهير وقد اشتهر بتفسير القرآن على طريقة الصوفية وله فيه كتاب شهير هو كتاب (حقائق التفسير) ويضمه الذهبي في تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ٢٤٩ راجع أيضاً Journal Asia 1912, 584.

(٣) راجع طبقات السبكي ج ٤ ص ١٠.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية مجلد ١ ص ٣٥٣ فريد الدين العطار ج ٢ ص ٣٢٧ وما بعد.

(٥) الوجد هو بشارات الحق بالتقوى إلى مقامات مشاهدته. راجع كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٨٢ (طبعة اربرى). والفناء عدم رؤية المبد لقطه بقيام الله على ذلك. راجع اصطلاحات الصوفية الواردة في الفتوحات السكية ص ١٧٩. التعرف ص ٩٢ الجرجاني ص ١١٣.

(١) دائرة المعارف مجلد ١ ص ٣٥٢. عطار ج ٢ ص ٣٢٧.
(٢) راجع عطار ج ٢ ص ٣٢٤. عن المعرفة راجع التعرف ص ١٠١. المعرفة إذا وودت على الرضاى السر عن حواها كالنفس يمنع شاعها عن إدراك نهايتها وجوهرها.
(٣) راجع مصطلحات الصوفية ودرجاتهم.
(٤) راجع رسائل ابن تيمية الرسالة الأولى ص ٢٠.
(٥) تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١٧٩.